سلماً أم حرباً. ان العوامل الأقوى في السلم، وفي الحرب، هي العوامل الموضوعية، التي يميز المرء منها تعبيرين: الجيو ـ بوليتيكي، من جهة، والسوسيو ـ اقتصادي، من جهة أخرى. والمقصود، هنا، بالتعبير الأول من العوامل فقط ما يتعلق باعتبار الشرق الأوسط منطقة نفوذ للدول العالمية الكبرى؛ أما التعبير الثاني، فهو المتعلق بالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية الناشئة عن التعبير الأول.

ان جميع البلدان، تقريباً، ومن الجملة البلدان العربية، تعرضت، في فترات مختلفة من تاريخها، لهجرات متدفقة اليها من الخارج، لسبب تاريخي، أو لآخر. لقد تعرضت سوريا، مثلاً، في تاريخها الحديث، لهجرات أرمنية، وجركسية، وألبانية، الخ. ولم يخلق ذلك أي تناقضات تذكر، وانما، بالعكس، انسجم الجميع فيما بينهم، وتكامل نشاطهم الاقتصادي، والاجتماعي، بشكل مفيد، على الرغم من عدم الاندماج أحياناً.

أمّا الهجرة اليهودية الى فلسطين، فقد خلقت تناقضاً، لأنها كانت مرتبطة بالعوامل الجيو ـ بوليتيكية، التي تحدثنا عنها. كانت جزءاً من عملية غزو تدريجي، تبنّتها بريطانيا العظمى في البداية، ورعتها. ثمّ نشأت عن ذلك عوامل سوسيو ـ اقتصادية على مستويين رئيسين: الأول مستوى السادة الطبيعيين (الزعماء التقليديين الاقطاعيين والدينيين) في المنطقة، إذ وجد منافس لهم لدى السلطة المنتدبة هو العنصر الصهيوني (أي: العنصر القيادي التنظيمي للمهاجرين الجدد)، والثاني مستوى الطبقات الأدنى في المدن والأرياف.

الفلاحون الفلسطينيون وقع عليهم الثقل الحقيقي للغزو الصهيوني. لقد تعرّضوا، اضافة الى الاضطهاد الاقطاعي، الذي كانوا يتعرضون له بالأصل، للاضطهاد الصهيوني، الناتج عن أمرين مترافقين: الأول انتقال ملكية الأرض، التي يعمل فيها الفلاح بشكل، أو بآخر، الى الصهيونيين «حسب الدكتور رؤوبين، ان تسعين بالمئة من الأراضي، التي حصل عليها الصهيونيون، قد باعتها اليهم طبقة الأفندي العرب»[1]؛ والثاني التخطيط الصهيوني لتهويد العمل في كلا الصناعة والزراعة، «أما منذ الحرب [العالمية الأولى]، فقد رافق الاستعمار الصهيوني نضال يستهدف ابادة الفلاحين والعمال العرب، وذلك بتطبيق شعار كيبوش عفودا [أي الاستيلاء على العمل]»[2].

اذن، وجدت نقمة متزايدة على مستوى الفئات الفلسطينية المضطهدة. واستفاد السادة الطبيعيون من هذه النقمة لتعزيز وجودهم تجاه العنصر المتفوق الجديد ـ الصهيوني. وفي الوقت عينه، ان تحريك النقمة لا بد من ان ينتج عنه تفاعل تسلسلي، متداخل مع العامل الجيو ـ بوليتيكي المتمثل برغبة سلطات الانتداب في الاستفادة من التناقض العربي ـ اليهودي لصالح تدعيم هيمنتها على الطرفين.

كانت إزالة التناقض، حينذاك، تتطلب ازالة العامل البريطاني ـ الصهيوني (العامل الجيو ـ بوليتيكي)، والتباين الاجتماعي ـ الاقتصادي الناجم عن العامل الأول. وقد حاول ذلك، في تلك الفترة، الحزب الشيوعي الفلسطيني[3]، ولكنه كان أضعف بكثير من ان يستطيعه.

في الوقت عينه، لم يكن ممكناً، إلّا في حدود ضيّقة، تطوير التناقض، كي يأخذ، تدريجياً، أبعاداً تقدمية، اقليمية ودولية. لم يكن ممكناً، مثلاً، ان تندفع الدول العربية، تحت تأثير المطرقة البريطانية ـ الصهيونية، الى تطوير بناها الاقتصادية وقواها الذاتية، كما فعلت اليابان، من قبل، تحت تأثير البوارج الحربية الأوروبية. ولم يكن ممكناً، أيضاً، تحقيق نقلة ايديولوجية، والتحول من صراع عنصري في اطاره العام، الى صراع اجتماعي ـ اقتصادي موصول بالصراعات الاجتماعية ـ